أنور شاؤل

مذكرات صبي شاغ احدب

اسلوب مبتكر في نقد بعض المعايب الاجتماعية

نشرت متسلسلة في مجلة الحاصد الأسبوعية
في أعدادها 12 – 31 من سنتها السادسة
(16 تموز – 26 تشرين الثاني 1936)

(حقوق إعادة النشر بأية صورة كانت محفوظة لعائلة الكاتب)

من مشاهد عيد سعيد

في عهد مضى ، عندما كنت تلميذاً ، كان للعيد اثر بعيد في نفسي ، واني ما زلت اتذكر تلك الحلاوة التي ما كان ليبخل بها العيد علي رغم ما كان يحوطني من شقاء .

واليوم ، وانا في حياتي العملية ، استيقظت لاتمتع بشمس العيد الضاحكة فاذا بذلك المشهد الذي اعتدت رؤيته في مثل هذا الصباح على غير عهدي به .. اجل هيذي الشمس مشرقة على عادتها ولكنها لا تحمل لانظاري البهجة والغبطة وهيذي الطيور مغردة ولكن تغريدها مشوب بالحان الالم !

وفي هذا اليوم اذ يخلد الجميع الى الدعة والانس والفرح كان علي ، حسب عادتي ، ان احمل عدة الصباغة وارود المقاهي .

ـ صباغ .. صباغ .. خوش صباغ ..!

ولا بدع ان يكون الاقبال على الصبيغ في هذا اليوم كبيراً يدر علي دخلاً ليس بالامكان الاستهانة به والاستغناء عنه ، وكانت احاديث الناس في المقاهي حد مختلفة فالكهول الذين تخطوا الخمسين راحوا يحنون الى عهود مضت كان الزمن مؤاتياً لهم فيها : الا ليت الشباب يعود يوماً فاعلمه بما فعل المشيب .

اما الشيوخ الذين وخط الشيب شعرهم واصبحوا في الحقيقة « في عهد المشيب » فكانوا يتطلعون بعيون حائرة الى هذا وذاك لا ينبسون بكلمة ، اذ ليس الى جانبهم من يكلمهم ، اكثرهم منعزلون في زاوية من زوايا المقهى . . وفي نظراتهم معان كثيرة الالم المكبوت وللحنين .. وللذكرى وكل شيء . . . عدا الامل ! !

بقي هناك الشباب ، قلب الامة الخفاق ويدها العاملة . . . الشباب تاج الحياة الذهبي ، الشباب الذين انا واحد منهم ـ ارجو انهم لا يستنكفون من انتمائي اليهم ـ فقد كانت احاديثهم فياضة بالحياة وبالمثل العليا وبالطموح . ربما لا تصدقني ياعزيزي اذن فما عليك الا ان تستمع معي الى هؤلاء الشباب الاربعة الجالسين في مقهى الباب الشرقي :

الاول : كيف قضيتم ليلة العيد يا اخوان ؟

قال ذلك بنبرة خاصة ذات معنى فاجاب الثاني : اما انا فعلى احسن ما يرام

نظرة فابتسامة فسلام
فكلام فموعد فلقاء .

الاول : واين كان اللقاء ؟

الثاني : في واحد من بيوت «المعلومة» المنتشرة في انحاء العاصمة ... حقاً انها كانت ليلة من العمر كالفتني ثلاثة دنانير

وستمائة فلس .. وانت يا ابله ؟

الاول : ان الابله الذي تزعم قضى ليلته في جنة من جنان الخلد توفر فيها من كل فاكهة زوجان . . ولئن تستكثر ما صرفت فاعلم، حرسك الله، انني صرفت اكثر من اربعة دنانير « ومن يخطب الحسناء يستصغر المهرا » .

بين قوسين : (هنا وقبل ان يرفع الثالث تقريره وقفت امرأة فقيرة ممزقة الثياب شاحبة اللون تحمل بيدها طفلاً هزيلاً واخذت تستنجد بمروءة هؤلاء الشبان فانتهرها احدهم بقوله : « حتى في هذا اليوم لا نخلص من قذارتكن » وقال الثاني : « ولماذا لا تقصدين جمعية حماية الاطفال او حماية العجائز » . . وهنا تحسرت المرأة حسرة عميقة قهقه على اثرها الشبان الاربعة . وقال احدهم : « آه لو كنت جميلة . . اذن لهان مصابك . . ولما ترددنا في اتحافك بما ترغبين ! »

وعلى اثر ذلك راحت الفقيرة تجر اذيالها جراً كسيرة الخاطر ، دامعة العينين . واستأنف شبانا اللاعبون حديثهم الممتع .

الثالث : اني لاستحي ان اخبركم يا اخوان ان جيبي فارغ الآن وان عليكم انتم ان تدفعوا ثمن القهوة وثمن صبغ الحذاء ايضاً - وهنا رفع صوته للفت نظري - لاني لا اعتقد ان حضرة الصباغ المحترم مستعد للتنازل عن حقه .

فقلت بنبرة ودية :

- لست مستعداً للتنازل ولكن بامكان حضرتك ان تبتلع حقي كما ابتلعت ايطاليا الحبشة ! !

فبدت ابتسامة عريضة على شفاه الشبان الاربعة حوت كل معاني الاستغراب ، واستأنف الثالث حديثه :

- الخلاصة انني قضيت ليلي في صرف حاتمي لم يقف عند حد سوى الافلاس !

وهنا تنحنح الرابع وقال :

- اما انا فلا اريد ان ادخل في التفاصيل واكتفي بالتأكيد لكم انني قضيت ليلتي على ما قال الشاعر :

« ضم وتقبيل واشياء اخرى ! »

وتركت المقهى والالم يحز في قلبي واوسعت الخطى الى غير وجهة معينة وفي طريقي صادفت المرأة الفقيرة ما زالت تستنجد بمروءة الناس وتطلعت الى الاناء الذي في يدها فوجدت فيه قطعة نقود من فئة فلسين - اجل فلسين فقط - فمددت يدي الى جيبي واخرجت قطعة ذات اربعة فلوس وضعتها في الاناء وتناولت الفلسين بغية التصدق بها على فقير آخر . . .

فشكرتني بهزة من رأسها المتعب واغماضة من عينيها الدميتين وسارت في طريقها . واذ تطلعت الى قطعة الفلسين وجدتها ممسوحة الكتابة لا تصلح للتداول ! !

الرجل الذى قضى حياته بالبر والتقوى !

كنت اصبغ حذاء احد زبائني بنشاطي المعهود. وكان هو منهمكاً في مطالعة صحف النهار الواحدة تلو الاخرى . كان يطالعها بعجلة فلا يكاد يلقي نظرة على العناوين ويلتهم بعض الاخبار المحلية حتى يضعها جانباً ويتناول الاخرى. ولقد لفت نظري خطان اسودان بين خبر يتجاوز العشرين سطراً فقلت في نفسي : « الظاهر ان شخصية مهمة توفيت ؟ ولكن من هو هذا الشخص يا ترى ؟ »

ولم يكن الخبر الاسود منشوراً في صحيفة واحدة انما في كافة الصحف مما زاد في نفسي حب الاستطلاع ، وعندما فرغت من الصبغ سألت زبوني .

ـ هل لك ان تتفضل باعلامي عن اسم الشخص المتوفي ؟

ـ صدقني ياصاحبي . انني لم اسمع باسمه قبل اليوم فاسمع الخبر علك تعرفه انت .

وقرأ على مسمعي خبراً تنعي فيه الجريدة حضرة الوجيه المحترم والشهم الغيور (...) عن عمر تجاوز السبعين سنة قضاها باعمال البر والتقوى والصلاح (كذا) وتزعم الجريدة ان نعيه قد شق على الآلاف من عارفي فضله ومقدري صفاته (كذا) وقد سار في جنازته جماهير غفيرة من المشيعين الى مقره الاخير !! وفي الخبر حاشية تفيد ان جماعة من اصحابه سيقيمون له حفلة تأبين بعد بضعة ايام .

يا للخبر الاسود ، فرغت من قراءته فلطمت على رأسي لطمتين بدون ارادة مني فظن صاحبي ان المتوفي احد اقاربي فقال :

ـ لا تحزن يا هذا كلنا سائرون في هذا الدرب ، انما هم السابقون ونحن اللاحقون .

وكظمت غيظي ولم انبس بجواب وبعد تناول الاجرة سرت اوسع الخطى ! لاشك عندي ان القارئ يتشوق الى معرفة الشخص المتوفى الذي اهتمت به الصحف هذا الاهتمام. اما الاسم فيعذرني على عدم تبيانه لاني لا اريد ان اخرق القاعدة التي جريت عليها . انما للقارئ ان يعرف مني ، وانا احدثه حديث خبير ، ان المتوفي كان جاراً لنا لمدة سبع سنوات ، اجل انه يملك ثروة من المال لا بأس بها ولكنه كان من اشرس

خلق الله ، كان فظ الطبع ، عصبي المزاج ، صلفاً . لا اتذكر ان متسولاً طرق باب داره ومضى الى حال سبيله بسلام . كان لا يكتفي بعدم التصدق بفلس وبكسرة خبز يابسة انما كان ينهال على الفقراء بالشتم والسب والضرب احياناً !! كان مكروها في خارج بيته وغير محبوب في داخله . وكثيراً ما سمعت اقرب افراد عائلته يكيلون له الذم والقدح .

هذا هو الذي زعمت الصحف انه قضى السنوات المديدة باعمال البر والتقوى .. هذا هو رجل الصلاح والمعروف !!

* * *

وبقيت اترقب موعد التأبين بفارغ الصبر ، لارى باي لسان كذوب سيفتري المؤبنون على الحقيقة والتاريخ ؟ ولكم كان خجلي عظيماً عندما رأيت نفسي في الوقت المضروب في مكان يعج بجمهور غفير من الناس فيهم الصغير والكبير ، الفقير والغني وحتى النساء . وقد جلس اهل المتوفي في الصدر بينما كان الحزن يسود المكان . ولم يطل المقام حتى انبرى الخطباء بذلاقة لسان وفصاحة بيان يسردون ترجمة حياة المتوفي العظيم ويثمنون فداحة الخسارة التي منيت بها البلاد والامة والوجاهة والنبل والجود حتى ذهب الحماس باحد المؤبنين الى تبيان شكه مما اذا سيلد الزمان شبيهاً به .

وكانت الدموع تترقرق في بعض العيون وهنا رأيت للمرة الاولى في حياتي كيف تكون دموع التماسيح !

وانفض عقد الاحتفال ومضى كل لشأنه . ومن بديع الصدف انني في خروجي صادف انني كنت اسير خلف اثنين من المؤبنين كانا اكثر الخطباء تألماً وحماساً .

قطعنا مسافة وخلا المكان فاذا بقهقهة عالية تصدر من احدهما واذا بأخرى يبعثها الثاني .

ـ كيف رأيت تمثيل الدور ؟

ـ على احسن ما يرام من الاتقان ، وانا الم يعجبك تمثيلي ؟

ـ لله درك لقد اوشكت ان تبكيني ! ولكنني اتذكر انك خطبت هذه الخطبة في تأبين شخص لا اتذكر اسمه قبل ست سنوات ..

ـ شيء اكيد وهل تظن ان جمهور المستمعين يحفظ خطب التأبين ؟ بل هل تظن ان بينهم من يسمع ما نقول سوى أهل المرحوم الذي يعد ان تعذر عليهم ان يسمعوا كلمة طيبة عن ميتهم في حياته هرعوا ليسمعوا ذلك بعد وفاته ...

ـ اذن فسوف احتفظ انا كذلك بنص الخطاب ، فلربما احتاج اليه في موقف كهذا .

ـ حسناً تفعل . ولكن قل لي هل قبضت الاجرة او الاكرامية بتعبير ابق ؟

ـ لم اقبض شيئاً بعد ولكني انتظر

تسلم ذلك صباح الغد .

ـ عسى الا يطول انتظارك اما انا فلم الب الطلب قبل ان اقبض دفعة اولى على الحساب ...

كانت جملة « على الحساب » آخر ما أتصل بي من حوار الصديقين المؤبنين اللذين غابا عن النظاري في منعطف الشارع .

وهنا ، هنا فقط وجدت عذراً مقبولاً لاولئك الذين يعتلون المنابر للبكاء على من في المقابر ...